المقدمة الطللية

امتازت القصيدة الجاهلية النموذجية بتقسيمها إلى مقاطع أو وحدات، تشكل في مجموعها مسارا شعريا محدّدا يتبعه الناص في رحلة متخيلة عبر المكان (الصحراء) وموجوداته من بشر وحيوان ونبات، ناسجا من خلال هذه الرحلة علاقة بالآخر الذي يتمثل في (المرأة)، (الناقة)، (الممدوح)، حيث تكون القصيدة إطارا ثقافيا وحضاريا عاما تخاطب من خلاله الحياة العربية وتستجوب، ولعل التساؤل الرئيس الذي شغل بال الإنسان في كل عصر ومكان هو تساؤل الموت وما بعد الحياة .

لذلك تأتي وحدة الطلل جزء طليعيا في القصيدة، وهي مقطع مميز في الشعر القديم، لدرجة صار معها هو السمة الأساسية لهذا الشعر، فقيل عنه شعر أطلال أو البكاء على الأطلال، ولعل في هذا الكلام نبرة استخفاف ورفض لما يتضمنه من ضعف وسلبية، ولكن هذا الاعتقاد أو الموقف ينم عن أفكار مسبقة أكثر مما ينم عن دراسة وعلم وفهم، فالأطلال مظهر شعري حزين لا ريب في ذلك، إلا أن الحزن جزء أساسي من المنتوج الأدبي العالمي، فلا قيمة للمسرح اليوناني القديم مثلا دون مآسيه الخالدة، ولا قيمة للشعر الرومنسي الأوروبي دون مسحة السواد التي تميزه، وأعمال شكسبير التراجيدية أكثر شهرة بكثير من أعماله الهزلية، وهكذا .. فالحزن قيمة فنية وأدبية تبرزها الحياة باستمرار ويحسّها الإنسان ويتأثر بها أكثر من تأثره بالسعادة، وعدد البشر المحزونين أضعاف أضعاف البشر السعداء، والشاعر السابق للإسلام لم يخرج عن هذه القاعدة العامة حين لمح إلى الوجود وتأمل فيه فرآه ينتقل بين نقيضي الموت والولادة، النهار والليل، الجفاف والخصب، اللقاء والفراق، الصحة والمرض . فأدرك أن وراء كل سعادة حزن، وأن بعد كل مغنم ينتظره مغرم .

والحقيقة أنّ الكثير من النقاد تأملوا المقدّمة الطللية في القصيدة القديمة وقدموا تفسيرات وتحليلات مختلفة بشأنها، وحاول كل منهم أن يردها لسبب بعينه، ونحن أولاء نقدم جملة من هذه التأويلات في تسلسلها الزمني مع مناقشتها في موضعها :

1 ـ رأي بن قتيبة :

هو من أقدم الباحثين الذين حاولوا اعطاء تفسير معين لظاهرة الطلل، واللافت للنظر أن ابن قتيبة لا ينسب رأيه هذا لنفسه، بل يقول إنه سمعه من المهتمين بالأدب في عصره، وقد يكون ذلك صحيحا أو غير صحيح، إذ يحتمل أنه أراد بهذا أن يعطي قوة أكبر لرأيه بجعله رأيا عاما شائعا متداولا بين المثقفين له قوة الحقيقة المؤكدة .

يقول ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء : "سمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار فبكى وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين (عنها)، إذ كان نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما هي عليه نازلة المدر لانتقالهم من ماء إلى ماء وانتجاعهم الكلأ وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان، ثم وصل ذلك بالنسيب (..) ليميل نحوه القلوب .." .

فابن قتيبة يرى أنّ الشاعر يلجأ للطلل ليجعل منه سببا أو منطلقا لذكر القوم الذين رحلوا عنه، ولم يخلفوا وراءهم شيئا إلا آثارا بالية هي كل ما يرمز إلى استقرارهم بهذا المكان يوما ما، فهم بدو رحل تقوم حياتهم على الانتقال والاستقرار (الحلول والظعن)، سعيا مستمرا وراء الماء والكلأ على خلاف أهل الحضر المستقرين في مدنهم وقراهم . ثم إنّ الشاعر يتخذ من الطلل وذكر القوم الظاعنين ممرا أو جسرا تميديا للحديث بعده عن المرأة المتغزل بها، والتي تكون رحلت هي بدورها مع قومها تاركة الشاعر يعيش حسرته وشوقه . يقول النابغة مثلا :

يا دارَ مَيّةَ بالعَلياء فالسَّنَد أَقْوَتْ وطَالَ عليها سالفُ الأبَدِ
وقفتُ فيها أُصَيلانًا أُسائِلُها عَيَّتْ جَوابًا وما بالرَّبعِ مِن أحَدِ

أو كقول امرئ القيس :

بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمل قَفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ
فَتُوضِحَ فَالْمِقْرَاةِ لَمْ يَعْفُ رَسْمُهَا لِمَا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمْأَلِ

إن لرأي هذا الناقد ركيزة أساسية : أن الطلل سبب وليس غاية، سبب ومدعاة لذكر الأهل والأحبة الراحلين عنه، وهو تمهيد لمقدمة أكبر منه هي المقدمة الغزلية التي تضطلع بريادة القصيدة لقوتها النفسية وجاذبيتها وقدرتها على إمالة قلوب المستمعين وجلب اهتماهم .

ـ من مآخذنا على هذا الرأي أن المقدمة الطللية هي من الاتساع والأهمية والعمق ما يجعل القول بكونها سببا لذكر القوم الراحلين فقط قولا غير صائب، فلماذا يقف الشاعر على أطلال القوم يصفها ويعدد تفاصيلها وقد رحلوا ؟، أو ليس في مقدوره الرحيل معهم ؟، لماذا يفصل نفسه عنهم وهو جزء منهم ؟ ، ما المثير في الطلل البالي حتى يصر الشاعر على تسجيل لحظته شعريا واستنباتها ؟ . ثم إذا كان المقصود هو التغزل بالمرأة فلماذا الاهتمام بآثار قومها ؟ ، ثم إن ربط الطلل بالبدو الرحل ـ وإن كان صحيحا في ظاهره الاجتماعي ـ إلا أنه أمر لا يثبته الواقع الشعري، فالطلل ـ كظاهرة فنية وليس كظاهرة اجتماعية ـ لم يقتصر على شعراء البادية وحدهم، فشعراء الحضر بدورهم التزموا بذكر الأطلال في مطالع قصائدهم ربما حتى من غير أن يروا في حياتهم طللا .

2 ـ رأي فالتر براونة :

يرى هذا المستشرق الألماني أن الشاعر الجاهلي يورد موضوعة الغزل ومنها جزئيتها المتعلقة بالطلل ، لأن "موضوع النسيب الصميم هو الموضوع الذي حرك الإنسان في كل زمان (..) وهذا الموضوع هو اختبار القضاء والفناء والتناهي" . ويورد مثالا من معلقة عبيد بن الأبرص :

أقفر من أهله ملحوب فالقطبيات فالذنوب
إن بدلت أهلها وحوشا وغيرت حالها الخطوب
أرض توارثها شعوب وكل من حلها محروب
إما قتيلا وإما هالكا والشيب شين لمن يشيب

"هل هذه الأبيات لشاعر قديم أم لأحد الشعراء الوجوديين في وقتنا هذا ؟، أما نعرف صوت هذه الصرخة في الشعر المعاصر حقيقة ؟" . إن شعرا يضم عبارات مثل عفت الديار، امحت الرسوم، درست الدمن هو تجربة وجودية يعيشها الشاعر باعتباره إنسانا خاضعا لحتمية الفناء والتناهي، إن الطلل تعبير عن التشاؤم وعن القلق وعن الخوف بالمعنى الوجودي، تعبير عن صراع البقاء والفناء . وقد تراجعت المقدمة الطللية بعد الإسلام لأن هذا الأخير قد حل ولو جزئيا أسئلة القلق والموت والقدر .

ـ الحقيقة أن رأي فالتر بروانة قد جاء في فترة كانت فيها الفلسفة الوجودية في أوروبا موضة شعبية (نشر فالتر بحثه سنة 1963)، وعليه فإن الباحث لم يقم إلا بتحميل

شعرنا القديم ما لا يطيق، ثم إن بروز ملامح وجودية معينة في شعر عبيد بن الأبرص أو غيره لا يدعو مطلقا إلى تعميم النتيجة والخروج مباشرة إلى أن الشعر الجاهلي كان شعرا وجوديا، ذلك أن الوجودية فكرة فلسفية عميقة معقدة لا يمكن الادعاء أن الشاعر الجاهلي بطبيعته الأقرب للفطرة وثقافته الفلسفية المحدودة قد فكّر فيها واستخلصها، وقال شعرا على ضوء مقولاتها .

إن الأبيات التي يستشهد بها فالتر براونة تتحدث عن قهر الطبيعة للإنسان أكثر مما تشير إلى الموقف الوجودي، وعن كفاح الإنسان وصراعه ضد أخيه الإنسان نتيجة البيئة شديدة القسوة التي لا ترحم الضعفاء . وهي أفكار عادية تعبر عن الاحتجاج والسخط على القدر والطبيعة أملتها البيئة والحياة اليومية أكثر مما أملاها التفلسف والتفكير، فلو كان المطر غزيرا والعشب متوفرا والمناخ معتدلا لما كان للشاعر أن يقول هذه الأبيات، فالنص ابن بيئته دائما .

أما بخصوص الإسلام، فصحيح أن المقدمة الطللية قد تراجعت بعده، ولكن لأن الحياة نفسها تغيرت وتطورت، ولم يعد الشاعر يعاني نفس الظروف والشروط الحضارية القديمة، فلا يعقل أن يستمر موضوع الأطلال في وقت صارت بغداد فيه عاصمة للعالم المتحضر، ثم إن التصوف والزهد قد طرحا أسئلة لا تقل قلقا وعمقا وتساؤلا من تلك التي طرحها شعراء الطلل على الرغم من أنهما جاءا بعد الإسلام . بل ولم يفكر الجاهليون في قضايا الغيب والموت ويتفرقوا فيها شعيا ومذاهب كما فكر فيها المسلمون .

وأخيرا فإن فالتر براونة قد اختار معلقة غير مشهورة ولا تقدم مقدمة طللية حقيقية، فهي قصيدة تفتقر إلى وجود مقدمة طللية حقيقية بعناصرها المألوفة، ولا يأتي بعدها غزل، لذلك فهي أقرب إلى الحكمة منها إلى الطلل، هي حسرة وصرخة إنسان يحس بانهدام حضاري وعبثية، خصوصا وأن هذا الإنسان سبق له وأن عرف حضارات عريقة قبل أن ينغمس في البداوة والتخلف، فكثيرة هي الشعوب الرعوية التي تتوزع حياتها على طرفي الحل والترحال، لكن لا نجد في شعرها مقدمات طللية، لسبب بسيط هو أنها لم تعرف صعودا حضاريا ثم سقوطا كما حدث للعرب قبل الإسلام .

3 ـ رأي عز الدين اسماعيل :

يقترب عز الدين اسماعيل في تفسيره للظاهرة الطللية من تفسير براونه، فهو يرى أن الأطلال ومايتبعها من ذكر الحبيب إنما يرمز بهما الشاعر إلى لحظتين متناقضتين في الوجود تعتملان في نفسه هما لحظة الموت وتمثلها الأطلال، ولحظة الحياة ويمثلها الغزل أو المرأة، فالمقدمة الطللية هي "انعكاس لذلك الصراع الأبدي في نفس الإنسان، وفي الحياة من حوله، بين حب الحياة وغريزة الموت" .

ـ إن الطلل لا يقوم على أساس نفسي فحسب، بل تعتمل فيه عوامل أخرى كالعامل الطبيعي وتأثيره في الإنسان وشعره، والعامل الاجتماعي الذي يرى في الأطلال تعبيرا عن انهيار حضاري وتفسخ مجتمعي سابق أو راهن .

4 ـ رأي يوسف خليف :

قسم هذا الباحث تاريخ المقدمة الطللية إلى ثلاث مراحل : مرحلة أولى وكان فيها الوقوف على الطلل يتم بصورة عفوية طبيعية بسيطة خالية من التعقيد ومثالها معلقة امرؤ القيس، ومرحلة ثانية وفيها تحقق النهوض بفن الشعر وصناعته وتعقد موضوع الطلل أكثر ومثالها معلقة زهير، ومرحلة ثالثة تحول الطلل فيها إلى مقدمة كلاسيكية ذات تقاليد متبعة ومثالها معلقة لبيد بن ربيعة .

والأطلال برأي الباحث جاءت حلا أو علاجا لمشكلة الفراغ التي عانى منها الشاعر القديم، وتراتب الحياة ووقوعها في الروتين، بين حل وانتقال، بين زمن يشع فيه المكان بالحياة والحركة، وزمن بعده يعلوه فيه الغبار وتمحي آثاره الرياح .

ـ الحقيقة أن تقسيم الباحث المقدمة الطللية إلى ثلاث مراحل يبدو تقسيما منطقيا مقبولا يتم فيه الانتقال من البسيط للمعقد، إلا أننا لا نوافقه على الأمثلة التي قدمها كنماذج لهذه المراحل، لأن هؤلاء الشعراء عاشوا في زمن واحد تقريبا مما لا يسمح بجعلهم ممثلين لمراحل فنية متفاوتة، ثم من قال أن معلقة امرؤ القيس ذات مقدمة طللية بسطية وعفوية ؟ ، إنها لا تقل جمالا وتعقيدا وايحاء واكتمالا فنيا عن أي مقدمة أخرى .

أما دعواه أنّ المقدمة الطللية جاءت لسد الفراغ أو لتزجية الوقت فقول يجانبه الصواب لحد بعيد، فهي وإن كانت لا ترقى لتكون فلسفة وجودية كما ادعى بروانة، فإنها أيضا لا تنحط لتكون مجرّد سد فراغ أو أداة تسلية لقتل الروتين .

5 ـ رأي يوسف اليوسف :

يرى هذا الباحث أن الطللية بوتقة تتجمع فيها ثلاثة علاقات أساسية، وأي تفسير للطلل يجب أن يأخذ بهذه العلاقات في الحسبان، علاقة الإنسان بالمجتمع في لحظته السكونية (الحالية)، وعلاقة الإنسان بالمجتمع في لحظته التاريخية (الماضية)، وعلاقة الإنسان بالطبيعة التي تحكم وجوده .

ويذهب هذا الباحث إلى أن نشأة هذا الطلل تعود إلى زمن غابر سببها الكوارث الحضارية التي ابتلي بها الإنسان العربي القديم، والتي تسببت فيها الطبيعة بقوتها وجبروتها (خراب سد مأرب، مدائن صالح، بيوت ثمود، مدينة إرم ذات العماد ..)، والدليل هو تركيز القرآن على تصوير هلاك الأمم والشعوب القديمة بالرياح والعواصف والرعود والجفاف (وهي كلّها العوامل الحاضرة في المقدمة الطللية)، فالطبيعة تشكل في نظر الإنسان العربي قطب التضاد الذي يخشاه، وهي عدوته التي تتربص به وتسعى لتحطيم إنجازاته الحضارية، فالمقدمة الطللية شكل من أشكال الطقوس البدائية السحرية الخاصة باسترضاء الطبيعة واستجلاب الخصب، عبر الوقوف على المنزل المخرّب والمرأة المهاجرة . وقد ترسخ الطلل في اللاشعور الجماعي لدى الجاهليين، ممثلا لحال تراجعهم الحضاري السريع من أمة منتجة للقوة إلى أمة محرومة منها .

ويخلص الباحث إلى أن الطللية لحظة تجتمع فيها ثلاثة عناصر متجادلة : القمع الجنسي، الاندثار الحضاري، قحط الطبيعة . فالشاعر يوحد بين القحط الذي تقوم به الطبيعة (انعدام المطر وسيطرة الجفاف والموت) وما يؤدي إليه من انهدام للحضارة وما يسببه ذلك من قهر للذات وحرمان لها من المحبوبة / المرأة رمز الحياة والخصب . فالطلل ومعه الغزل يعبر عن القمع الجنسي والنفسي الذي يعانيه الفرد، وحرمانه من رغبته الفطرية في التوالد والانبعاث . وبكلمة أخرى هو العقم الشامل المعدي الذي يصيب الطبيعة بالجفاف، والحضارة بالخواء، والفرد بالكبت .

والأهم أن الشاعر يعقد مقارنة بين حرمانه من المرأة وبين الطلل، فهذا التلازم بين الطلل والغزل هو إشارة رمزية إلى أن الحرمان من الحب هو طريق للموت، هذا الذي يتفنن في تصويره عبر الطلل .

ـ ما يؤخذ على هذا التفسير ـ على الرغم من قوته ـ هو أنه صبغ الطلل وتابعه الغزل بصبغة جنسية، في حين نجد الكثير من المقدمات الطللية لا تشير بالضرورة إلى حضور أنثوي (كمقدمة عبيد بن الأبرص السابقة)، ثم إن الجدب هو عدو الشاعر وليس المجتمع، فالجدب هو الذي أرغم المحبوبة على الرحيل، والجدب هو الذي قضى على المنازل وهشم الحضارة، وليس القمع الاجتماعي، ولهذا يحاول الشاعر أن يتغلب على هذه الظروف القاسية ليس بمعاداة المجتمع بل بالبحث عن عناصر الحياة داخل الطلل نفسه، أي بالبحث عن البعث من خلال الموت، فامرؤ القيس مثلا يختم مقدمته الطللية بالحديث عن المطر رمز الحياة، وكذلك الشأن بالنسبة لعبيد ولبيد وغيرهم من الشعراء .

تركيب :

إن التحليل البنيوي للمقدمة الطللية (وخير من يمثله الباحث كمال أبو ديب) يكشف عن تواجد إشارات ورموز ودلالات عديدة تؤكد المقاومة والاستمرار ضد الموت والجفاف والنهاية، ثم إن الطلل ليس لحظة نهائية لا تتكرر، إنه عملية دائمة بدوام ارتحال القبيلة واستقرارها، فهي عندما تستقر تنشيء مجالا حيويا جديدا، وفرصة أخرى للتوالد والإنبعاث والاستمرار، أي دورة زمنية كاملة ينتقل من خلالها الوجود من النقيض للنقيض، من الموت للحياة ومن الحياة للموت، فاليأس الذي يظهر في غرض الطلل لا يلبث أن يمحيه الأمل التي يظهر في غرض الغزل، وهكذا يصبح الطلل مرحلة مؤقتة وليس وضعا دائما، ويحتفظ الشاعر بذلك بأمله في غد أفضل .